بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات انثروبولوجيا اللغة

المرحلة الرابعة

فرع الانثروبولوجيا

د. ياس العباسي

أحمد أبوزيد

حضارة اللغة

قصة اللغة هي قصة الحضارة الإنسانية والحضارة لا تنعكس بوضوح في شيء مثلما تنعكس في الكلام واللغة بحيث يذهب بعض الكتاب الى القول بأن كل ما قد يظهر في لغة مجتمع من المجتمعات من نقص أو قصور هو دليل قاطع على مدى تخلف ذلك المجتمع في ركب الحضارة. فالخبرة الإنسانية المتراكمة على مدى الزمن تنعكس في اللغة وتجد تعبيرا لها فيها، سواء اتخذ ذلك التعبير شكل الكلام العادي أو الكتابة المعروفة أو الرسوم والنقوش التصويرية التي تركها الأنسان المبكر على جدران الكهوف او حتى في الانجازات الغنية المختلفة من معمارية أو موسيقية أو حركية كالرقص والتمثيل الصامت، ما دامت كلها تترجم في آخر الأمر الى الفاظ وتصورات ومفهومات وما دامت تعبر عن أفكارنا ومشاعرنا وتنقلها الى الاخرين . فاللغة حتى في معناها الضيق الرقيق الذي يقتصر على الكلام والكتابة عنصر أساسي في حياة البشر اذ من دونها يصعب قيام الحياة الاجتماعية المتماسكة المتكاملة وبالتالي يستحيل قيام الحضارة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من نظم اجتماعية وانماط ثقافية وقيم أخلاقية ومبادئ ومثل بل وحياة مادية ومخترعات، لأنها هي اداة التفاهم الذي هو اساس التعاون بين افراد الجماعة، وهذا كله قد يغرى المرء بأن يتساءل عما كان يحدث لو أن الإنسان لم يعرف اللغة وعما عسى أن يحدث لو اختفت لغات البشر عن الوجود؟

وقد يكون من الصعب الوصول الى جواب شاف ومحدد لمثل هذه التساؤلات، ومع ذلك هل يمكن القول ببساطة أن كل ما أمكن للإنسان انجازه خلال تاريخه الطويل – او خلال جزء كبير منه على الأقل – لا بد أن يختفي و يزول من الوجود اذا اختفت اللغة ، وقد يعجز الكثيرون عن تصور مثل هذا الوضع لاننا درجنا على أن نفكر ونتكلم ونعبر عن افكارنا بالكلام بحيث أصبحت اللغة – وليس مجرد الكلام واخراج الاصوات – تبدو لنا مسألة تلقائية أو آلية او عملا طبيعيا كالتنفس أو اختلاج العين، وذلك نظرا لأن اللغة تولف جزءا هاما وحيويا من حياتنا اليومية ومن مشاكلنا العادية وبينما هي في واقع الأمر ابعد ما تكون عن الآلية أو التلقائية أو الغريزة. فالطفل، يتعلم اللغة، وهو أمر يحتاج إلى كثير من الوقت والجهد والعناء، بل ان الرجل يضل خاضعا لهذه العملية الطويلة الشاقة طيلة حيلته وعن طريقها يكتسب مصطلحات جديدة وتزيد ثروته من الألفاظ ومفردات اللغة وتنفتح أمامه ابواب جديدة وميادين رحبة من المعرفة نتيجة لازدياد خبراته واتصالاته بالناس من ناحية، وتعقد الحياة الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية في المجتمع الذي يعيش فيه من ناحية اخرى. وهم – ومن الصعوبة تقدير الدور الرئيس الذي تلعبه النية في سلوكنا الاجتماعي حق التقدير فانه يمكن القول أنه لولا اللغة لما كانت هناك كتابة او اي وسيلة منهجية منظمة ومثمرة للاتصال والتفاهم ونقل الأفكار المجرد بمثل هذه الدقة، وهذا من شأنه أن يضع قيود شديدة على امكانيات التعلم مما يضطر في آخر الأمر الى أن نتعلم عن طريق التجربة والخطأ وعن طريق ملاحظة سلوك الآخرين وافعالهم ومحاكاتها تماما مثلما تفعل الحيوانات الأخرى ، وسوف يترتب على ذلك بالضرورة اختفاء تاريخ الإنسانية كله واندثاره اذا لن تكون هنالك وسيلة دقيقة ومختصرة لتسجيل الأحداث وروايتها وتناقلها عبر الزمن ، بل لن تكون هناك وسيلة لأحياء الماضي واعادة التجارب القديمة وتوصيلها للأخرين فضلا عن نقل أفكارنا الخاصة وآرائنا الذاتية للغير ومشاركة هؤلاء الغير في العمليات العقلية التي تدور في أذهانهم . بل ومن المحتمل أن تعجز حتى التفكير بالمرة، وذلك لو قبلنا ما يقوله بعض علماء النفس من ارتباط الفكر ذاته باللغة

وأن عملية التفكير هي في حقيقتها وجوهرها نوع من الحديث الى النفس أو الذات. كذلك سوف يختفي من المجتمع – كما يقول بعض علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية الذين تعرضوا لهذه المشكلة – كل عمل تعاوني مهما كان بسيطا ، اذ لن تكون هناك حيلة أي وسيلة لوضع خطة لمثل هذا العمل وشرحها للآخرين ثم توجيه اعمال المشتركين في تنفيذها وتنسيق جهودهم لانجازها، والأهم من هذا كله هو أن المجتمع بغير لغة لن تكون لديه وسيلة لضمان استمرار السلوك الاجتماعي، الذي يلزم – مع التعلم ، لخلق الثقافة والحضارة ، وهذا كله معناه ان المجتمع الإنساني سوف يكون اشبه تجمعات القردة العليا التي تشبه في تكوينها الجسمي بناء الجسم البشري والتي تتعلم من التجارب والخبرات السابقة وتستطيع استخدام بعض الآلات والأدوات ولكنها تعجز من ان تصل في ذلك كله الى المستوى الذي يصل اليه الإنسان ، والتي تفتقر على أية حال الى اللغة والى الحضارة[1].

---

[1] انظر في ذلك

Hoijer, H.; "Language and Writing in Shapiro, H. (ed): Man, Culture and Society, Oxford University Press, NY, 1960, pp. 196-7.

Pei, M; The Story of Language, Mentor Books NY, 1960, pp. 161-66.